لقد اتخذ نشوء وتكون ، ومن ثم تطور الحركة الوطنية الاردنية اشكالا ومظاهر عديدة ، تحكمت بها مجمل ظروف الوضع الخاص للاردن وتشكيل الدولة والاهداف الخاصة للسيطرة الامبريالية على الاردن، وكذلك السمات العامة المشابهة التي تتسم بها دول العالم الثالث ، الدول « ذات الانماط المتعددة ·

واذا كنا نتحفظ في الحديث عن وجود حركة وطنية اردنية ، في تلك الفترة بالمعنى المحدد للكلمة ، كحركة منظمة وقوية وواسعة وذات برنامج من جهة ، ولا نوافق ، من جهة اخرى ، على الحديث عن اخفاقها التاريخي فقط ، وكذلك حصر وجودها بالطبقات والفئات الحديثة ، فأن ما يمكن قوله ، هو ان بدايات نشوء وتكون ، ومن ثم تطور الحركة الوطنية الاردنية ، كان جنينيا وبطيئا ، تخللته انتكاسات وانعطافات شديدة الا انه كان في الوقت ذاته بمثابة الخميرة اللازمة لتطور واشتداد نضال عموم الحركة الوطنية والديمقراطية في الفترات اللاحقة · وهنا يكمن جوهر اهميته ·

ولا يمكن بأي حال ، الحديث عن انعدام وجود « حفار قبر الامبريالية » في الدول المستعمرة وذات النمط الخاص للتطور الكولونيالي · فقد اجابت النظرية الثورية (الماركسية) وتجربتها ، على دور اكثرية السكان الساحقة في هذه البلدان وخاصة الفلاحين في النضال ضد الامبريالية والرأسمال ولا يعني ذلك بالطبع دورهم في الثورة الاشتراكية . ان نضال الشعب الفيتنامي في الثلاثينات ، وكذلك الجزائر في الخمسينات واليمن الديمقراطي في الستينات ، هي امثلة ملموسة على وجود « حفار ـ قبر » للامبريالية في تلك البلدان ، رغم عدم وجود القوى الحديثة المفترضة ، ولا ينقص من هذه الحقيقة شيئا طبيعة التطور اللاحق واحتمالات الانتكاس في حال عدم وجود وتطور الطبقات العمالية والشغيلة لتتبوأ مركز القيادة فيها ·

ان عناصر اكثر تعقيدا وتشابكا ساهمت وفعلت في طبيعة تطور شرق الاردن والحركة الوطنية الاردنية خلال الفترة مجال البحث · فأضافة الى خصائص ومميزات نشوء الدولة والحركة الوطنية التي ذكرت ، فان الطبيعة الخاصة لنشوء الاردن ككيان مستقل كان قد انسلخ حديثا عن كيان اكبر هو ولاية سورية (حيث بقي ضمنها كقضاء فترة طويلة) ، تنمو طبقاته وسكانه ومؤسساته واقتصاده وتتأثر عما يجري في كل الولاية وفي مركزها تحديدا · وهذا التكون الجديد ، فرض عليه مرور فترة من الوقت ، يحدد فيها بالضبط اختياره وتكويناته «الكيانية» الجديدة ، والتي طبعت بكاملها حتما ، طبيعة وكيفية نشوء وتطور الحركة الوطنية ·

واخيرا لا بد من التأكيد ، انه مهما كانت الملاحظات الانتقادية التي قيلت وستقال حول كتاب هاني حوراني ، ومهما كانت الثغرات والاخطاء ، فأن قيمة الكتاب الاساسية وجوهره بل والكثير من تفاصيله ، ستبقى تحتفظ بأهميتها كمرجع جاد لمعرفة التاريخ الاجتماعي لشرق الاردن · واذا كانت مأثرة الكاتب والكتاب المهمة ، هي الاجابة على جانب « لم يتناوله احد قط » من تاريخ شرق الاردن ، فأن المأثرة الاهم ـ من وجهة نظرنا ـ هو الدور والوظيفة النضالية لهذا الكتاب ، وجرأة الولوج للبحث في موضوع معقد وشائك ، حيث شكلت المساهمة فيه ، اضافة جدية لكتابة « التاريخ الاجتماعي » لاحد الاقطار العربية ·

حليم احمد